سعد زغلول

ناظر المعارف والحقانية

في فاتحة القرن الحالي ساد جميع الاوساط والهيئات شعور بان التعليم قد انحط مستواه انحطاطاً عظيماً ، فارتفعت الصيحة من كل جانب بالمطالبة بالعمل السريع على اصلاحه . وكانت هذه الصيحة شأن كل شكوى عامة تصدر من الجمهور ، صيحة غامضة لا تشير الى علاج بذاته بل ولا تحدد موضع داء بعينه ، بل كانت احساساً شاملاً مبهماً بان نظام التعليم باجمعه قد تدهور وبان البلاد اصبحت لا يرجى لها صلاح ما لم يعالج هذا النظام قبل كل شيء سواهُ . ازاء هذا الضغط المتزايد من ناحية الرأي العام لم يجد ولاة الامور بدّاً من ان يعهدوا بشئون التعليم الى رجل موثوق به من الامة يتولى فحص الحالة ويضع لاصلاحها العلاج الملائم ، فكان الرجل المختار لهذه المهمة هو سعد زغلول باشا . ولقد يحسن بنا لادراك خطورة المهمة وتقدير المجهود الذي بذلهُ في سبيل الاضطلاع بها ان نأتي بوصف مجمل لحالة التعليم يومئذ

كان القابض على زمام التعليم في ذلك العهد رجل ان كان لا يصلح لشيء فهو تلك المهمة السامية التي القت بها اليه المقادير . فانت تعلم ان أحوج ما يحتاج اليه المشرف على التعليم هو بعد النظر وحرية الرأي وطول الاناة وروح التسامح . والمستر «دنلوب» لم ينشأ على هذه الصفات . أضِفْ الى ذلك حبهُ الاعمى للنظام ، لا للنظام في جوهره ، بل للنظام في مظهره . كان لا يحفل باللب كائناً ما كان ، ما دامت القشرة تعجب العين ملاسة ورونقاً . وكانت هذه الفكرة آخذة عليه سبيل كل تفكير ، مستحوذة على جميع مشاعره ، فلم يكن يقبل فيها هوادة ، بل كانت لا يرضيه في تنفيذها الا ان يبطش البطش كلهُ ، وكان بطبعه رجلاً شديد المراس ، لا يقبل من مرؤسيه ما دون الخضوع المطلق والطاعة العمياء ، يسرف الاسراف كله في توقيع الجزاءات لغير اسباب ظاهرة ، فاذا تقصيت الاسباب وجدتها ترجع بلا استثناء الى مخالفات تافهة لذلك النظام الآلي الذي أولع به ولوعاً . فلا غرو ان نراهُ ينشر حولهُ جوّاً من الخوف والارهاب كافياً وحده لان يجتثّ من أجرإ النفوس كل نزعة للحرية ويقتل في اشجع القلوب كل رغبة في الاستقلال

وكان اثر نفوذه بادياً ملموساً سواء في ديوان الوزارة او فروعها . فاذا دخلت

الديوان لم تأنس فيه دلالة لحياة او حركة او نشاط ، بل تحس كأنك في صومعة من فرط ما يخيم عليه من سكون وخشوع وانقباض . واذا كان هذا شأن الديوان فقل في المدارس ما شئت . وصفوة القول ان همّ الجميع كان متجهاً الى شيء واحد ، الى المحافظة على ادق النظام في كل مظهر مادي : في نظافة الاماكن وترتيب الاثاث ، في حسن زي المدرسين والتلاميذ ، في تنظيم الصفوف وموازنة الحركات ، في تأدية التحية للرؤساء كما دق ما يتطلبهُ النظام العسكري . أما تربية الملكات والعقول ، أما تقويم الاخلاق وتهذيب النفوس ، أما ترقية البرامج واساليب التعليم فكانت أغراضاً ثانوية لا يفكر ولا يجرؤ على التفكير فيها أحد ، واذكر بهذه المناسبة ما سمعته من فم احد المفتشين الانجليز وكان عضواً في اللجنة الفنية الاستشارية التي يرأسها المستشار اذ قال لي في معرض الشكوى : « ماذا تفعل مع هذا الرجل ، وماذا تصنع لترقية التعليم ونشره ، وهو كما جئنا لم يتحدث الينا في شيء غير النظام المادي ، فاذا حاول احدنا ان يجر المناقشة الى ناحية من نواحي التربية عناها الصحيح بادر الى ايصاد الباب في وجهه »

هذا من الوجهة النفسية ، أما من الوجهة العملية فان معاملة الرجل لكل من كان يتوسم فيه سعة في الفكر او استقلالاً في الرأي او تهاوناً في امر النظام كما يفهمهُ هو كان من شأنه ان يحرم وزارة المعارف من كل كفاءة كان يمكن ان تستفيد منها ، وان يضع في الوقت عينه من مكانة مهنة التعليم في اعين النشء حتى انتهى الامر بمدرسة المعلمين الى ان اغلقت او كادت ، وانفضت برهة والقائمون بامر التعليم في درجاته الدنيا جلهم شبان من حملة الشهادة الابتدائية ، وفي درجاته العليا جلهم رجال من الانجليز لا ينتظر بحال ما ان تقوم على اكتافهم نهضة التعليم القومي

تلك بالاجمال كانت حالة وزارة المعارف يوم انتقيت مقاليدها الى سعد باشا ، فكان عليه « اولا » ان يهدم ذلك النفوذ الذي لشر ظلهُ على جميع مناحي التعليم ، وكان عليه « ثانياً » ان يضع الاساس لنهضة التعليم القومي ثم يعمل على اقامة صرحه . وكان يزيد في مهمته مشقة وعناء أمران ، اولهما : انهُ كان مضطرًّا الى العمل للقضاء على ذلك النفوذ تحت عين منشئه وبصره اذ كانت الاحوال السياسية يومئذٍ لا تسمح لهُ بالتخلص من مستشار المعارف ، وثانيهما : ان الايدي التي كان مضطرًّا الى الاستعانة بها لادراك غرضه كانت ايدياً نشأت في ظل ذلك النفوذ والفت وطأتهُ ، فلم يكن من الهين استخدامها للقضاء عليه

فاذا انت تأملت كل هذه الاعتبارات ونظرت الى ما تهيأ لسعد باشا من النجاح في مهمته ، والى السرعة التي استطاع بها ان يصل الى بغيته ، دهشت حقاً من ذلك التوفيق السريع البديع ولادركت في لمح البصر ان حياة الرجل في عهد توليه وزارة المعارف ماكان يمكن ان تكون الا كفاحاً عنيفاً ، بل حرباً ضروساً ، كللت في النهاية بالفوز ولكن بثمن لا يقوم به الا جهاد الجبابرة

ولقد يضيق بنا المقام اذا نحن حاولنا ان نسرد هنا تفاصيل ماكان يقع من المشادات والمجاذبات بين وزير المعارف الحر ومستشارها ، فان هذا امر شرحهُ طويل ، فضلاً عن ان اكثر هذه التفاصيل لا يزال عالقاً بالاذهان ، وجارياً على الالسنة مجرى النوادر والاقاصيص . وانما حسبنا القول بانهُ لم يمض على تربع الوزير في منصبه الا فترة وجيزة حتى اصبح كل كبير وصغير في الوزارة يحسُّ بان الحال قد تبدلت غير الحال ، وبان ارادة غير ارادة المستشار قد اخذت تثبت وجودها ، وبان وطأة الكابوس الذي كان جاثماً على الصدور قد اخذت تخف وتنجلي ، فلم يبق احد من الراغبين في الاصلاح الا تنفس الصعداء ، وبدأت الهمم تتحرك والعقول تنشط ، واستقر في اعتقاد الجميع ان عهد الارهاب والمللق قد تولى ، وان الحكم اصبح للصراحة والكفاءة والاخلاص

استعرض سعد باشا حالة التعليم فادرك بذلك النظر السديد ، الذي ينفرد به عظماء الرجال والذي نراهُ يتجه رأساً في كل امر الى اللباب والصميم متخطياً ما عداهُ من الاغلفة والقشور ، ان المعلم وحدهُ هو اساس كل نهضة للتعليم وانهُ من هذه النقطة يجب ان يبدأ عمل الاصلاح . لم تكن اوجه الاصلاح الاخرى لتغيب عن سعد باشا وعن ذهنه الثاقب ، فكان يعلم مثلاً — كما صرح في خطبته الشهيرة في الجمعية العمومية — انهُ لن تقوم قائمة مذكورة للتعليم القومي ما لم يكن تلقينهُ باللغة القومية ، وان ترقية البرامج ونشر المدارس ومحو الامية كل هذه اغراض مطلوبة لذاتها وشروط لا بد من توافرها حتى تصبح نهضة التعليم جديرة بهذا الاسم . ولكنهُ كان وزيراً مسئولاً ، وكان يعلم ان الطفرة محال ، وكان يعلم فوق ذلك وقبل ذلك ان الصرح الشامخ لا يبنى من قمته بل من اساسه ، وكان يدرك بنظره الثاقب السليم ان المعلم هو الاساس لكل تلك الاصلاحات الموسوقة ، وانهُ الى ان تيسر لنا العدد الكافي من المعلمين فكل محاولة في سبيل واحد من هذه الامور ضرب من العبث . فلا بدع اذن ان نراهُ يوجه في اول الامر جل جهوده الى تدبير المعلمين الاكفاء ، وقد توصل الى غرضه من طرق

شتى : (قولاً) سعى حتى اعاد الى وزارة المعارف من كان قد هجرها من افاضل رجال التعليم . و(ثانياً) صرف همه الى احياء مدرسة المعلمين وكانت في دور الاحتضار فعمل على تغذيتها بالنجباء من الطلبة متذرعاً الى ذلك بنظام الجانية الذي كان من مقتضاه قبول التلاميذ المتفوقين مجاناً في المدارس الثانوية على ان يتعهدوا بدخول مدرسة المعلمين عند حصولهم على الشهادة الثانوية ، وبذلك ضمن لتغذية هذه المدرسة عنصراً من اقوى العناصر واصلحها. (وثالثاً) احيى نظام البعثات الى البلاد الاجنبية ليضمن الحصول على مدرسين من طبقة راقية يمكن احلالهم محل الاجانب في المدارس الثانوية والعالية توطئة لجعل التعليم في هذه المعاهد باللغة العربية

بهذه الوسائل غرس سعد باشا بذرة الشجرة التي نستظل الآن بظلها الوارف ونجني قطوفها اليانعة . فاذا كنت اليوم ترى التعليم سائراً في طريق الرقي بخطوات حثيثة ، واذا كنت اليوم ترى الامية تنجاب غياهبها سراعاً كما تنجاب غياهب الظلام امام اشعة الفجر الساطع ، واذا كنت اليوم ترى جامعة مصرية تنتشر محت لوائها العلوم ويستقي من مناهلها الطلاب ، واذا كنت ترى فوق هذا وذاك اللغة العربية متمكنة مزدهرة في جميع معاهد التعليم — فلا تنس اذ تشاهد كل هذا ان الفضل فيه اجمع انما يرجع الى تلك الجهودات المباركة التي بذلها سعد باشا في سبيل اعداد المعلم

ولم يكن سعد باشا وهو يسعى الى هذا الغرض الاكبر يهمل ما عداه من الاغراض فاذا لم يكن قد تمكن من انشاء مدارس جديدة لان حالة الميزانية يومئذ كانت لا تسمح بذلك فلقد كان ينتهز كل فرصة ويتذرع بكل وسيلة الى توسيع نطاق التعليم بانشاء فصول اضافية في المدارس الموجودة . والحق ان المقام يضيق بنا عن حصر جميع مآثره على التعليم . فمن انشاء مدرسة القضاء الشرعي ، الى فتحه ابواب مدرسة الحقوق للمتسببين من الخارج ، الى وضعه مبدأ التعليم بالعربية وقيامه على تنفيذه حيثما استطاع الى ذلك سبيلاً — كل هذه اعمال كان لها الفضل العظيم فيما نستمتع به اليوم من نشاط في الحياة العلمية وتقدم

وعلى ذكر مدرسة القضاء الشرعي نحب ان نصحح خطأ عالقاً بكثير من الاذهان فيما يختص بحادثة قرع النعضدة في حضرة الجناب الخديوي . لم يكن انشاء هذه المدرسة منظوراً اليه بعين الارتياح من جانب الخديوي لاسباب كثيرة لا محل هنا لبيانها والواقع ان نجاح سعد باشا في تنفيذ هذا المشروع كان من اكبر الدواعي لايثار صدر

الخديوي عليه اشد الانكار فلا عجب ان تكون عقبات ما ثلة قد اقيمت في سبيله ولكن سعد باشا تمكن بجرأته الغريبة من تذليلها جميعاً حتى لم يبق الا عرض المشروع على مجلس الوزراء برياسة الخديوي لاجازته فرأى سعد باشا قياماً بواجبه وابراء لذمته ان يدافع عنه في حضرة الخديوي وكانت تلك اول مرة وقف فيها وزير في حضرة ولي الامر مدافعاً عن مشروع يعلم عدم رضاه عنه فلما شرع سعد باشا يدلي بدفاعه هال ذلك الخديوي فقال — بما هو معروف عنه من سرعة البديهة ولكي يلبس سعد باشا ثوب المخطيء — : اذا كان الامر كذلك فلا داعي للاطالة ، اني موافق على المشروع. وكذلك تمت المصادقة عليه ولكن الاشاعة انتشرت في الوقت عينه بان سعد باشا اساء الادب في حق سيد البلاد

***

هذا بيان موجز لاثر سعد باشا في وزارة المعارف. اما عن اثره في وزارة الحقانية فان دقة نظام هذه الوزارة واتقان عملها وما كان للمحاكم وللقضاء في نفوس الناس من رفيع المنزلة وعظيم الاحترام — كل هذا ما كان ليستدعي منه اذ تولى وزارة الحقانية مجهوداً خاصاً ، بل كانت سيرته فيها كقوم سيرة لاعدل وزير في وزارة قويمة ، فلنكتفِ بكلمة صغيرة عن حادثة له في تلك الوزارة تكشف لك عن عبقرية الرجل واستقلال رأيه وشدة حرصه على اقامة ميزان العدل

كان المتبع ان يعرض المفتش بلجنة المراقبة القضائية ما وصل اليه بحثه في بعض الاحكام التي صدرت في بعض القضايا على اللجنة مجتمعة . ولجنة المراقبة هذه تضم — كما هو معروف — جميع المستشارين الملكيين ووكيل الحقانية والنائب العمومي وجميع مفتشي الحقانية القضائيين فتتولى بحث القضية حتى اذا انتهت الى رأي وقررت ان القاضي قد اساء التصرف او لم يحسن تطبيق القانون حررت خطاباً يرسل اليه مبيناً وجهة نظر اللجنة ومنبهاً بعبارة جافة تتضمن لفت نظره الى الامر . وكانت العادة قد جرت بان امثال هذه الخطابات ترفع الى وزير الحقانية فيمضيها فوراً بلا أخذ ولا رد

فلما تولى سعد باشا وزارة الحقانية ورفع اليه اول خطاب من هذا القبيل ثار ثائره وقال : انه لن يقبل بحال من الاحوال ان يمضي خطاباً بهذا الشكل. وكانت حجته انه يرى كفتي الميزان في هذا التصرف غير متعادلتين فهو من الجهة الواحدة يرى ان

الطرف الملوم هو قاضٍ مثقل بأعباء العمل مكدود الذهن مشغول الوقت يقضي حكمه في قضية من بين مئات القضايا التي يحكم فيها ، ويرى من الجهة الاخرى الطرف اللائم هو اولاً مفتش الحقانية وثانياً اعضاء لجنة المراقبة وكلهم من اساطين القانون وجهابذة النقد يتناولون هذا الحكم الذي اصدره القاضي في زحمة العمل فيجعلونه محل البحث الدقيق في فسحة من الوقت وصفاء من البال وتمكن من الرجوع الى مختلف المراجع والمطوّلات فاذا فرض جدلاً ان القاضي كان حقيقة قد اساء التصرف أو اخطأ وجه الصواب فان له من الظروف المحيطة به شفيعاً للمعذرة ، وان لم يكن بد من لومه فلا يجوز بحال ما ان يوجه اليه اللوم في خطاب رسمي يمر على مرؤسيه ويشهر امره في المحكمة فيلحق بهيئة القاضي من الاذى ما لا تحمد عقباه . هذا كله على فرض ان القاضي كان في الواقع مخطئاً ، ولكن قد يتفق — وهو امر سهل الاحتمال — ان تكون المسئلة مجرد خلاف في وجهة النظر بين القاضي واللجنة ، كما قد يتفق ان يكون القاضي متأثراً في حكمه باعتبارات داخلية لم ير أو لم يستطع تفصيلها في حكمه ولكنه اذا ابانها جعلت الحق في جانبه ، فكيف يصح اذن لومه قبل ان يسمع دفاعه

هذه الاعتبارات كلها رفض سعد باشا ان يتبع ما كان يتبعه اسلافه ، وقال : « أما ان امضي خطاباً كهذا فلا ، ولكني ادرس المسئلة فاذا اقتنعت برأي اللجنة فاني مع ذلك لا أسارع الى لوم القاضي ولا اعرضه للاهانة على مشهد من مرؤسيه ولكني بصفتي شيخ القضاة استدعيه الى مكتبي واسمع دفاعه . فاذا اقنعني بصحة رأيه اعطيته الحق ، والا وجهت اليه من اللوم الشفاهي ما يكون أبلغ وقعاً الف مرة من كل لوم كتابي مع اتقاء محذوره » . وجرى الباشا فعلاً على هذه الطريقة وقد اتفق ان ظهر له الحق في جانب القاضي فانصفه

هذه الحادثة تميط اللثام عن كثير من مناقب سعد باشا ولكن اجلّ ما تكشفه في نظري استقلاله في الرأي وتحرره من ذلك الوهم الذي هو اكبر عقبة في سبيل التقدم والاصلاح — اعني عبادة المواصفات والاصطلاحات — لم يكن سعد باشا يحترم اصطلاحاً لانه اصطلاح مقدس أو يقر عرفاً لانه عرف فحسب ، بل كان يسلط عليهما من ذهنه نوراً فاحصاً فان وجدهما مطابقين للمعقول اقرهما لهذا الاعتبار وحده ، والا نبذهما كما ينبذ المرء الرداء البالي

فؤاد كمال